هوامش

يعتبر الإسلام ثاني أكثر الديانات انتشاراً في روسيا بعد المسيحية، ويقدر عدد المسلمين بنحو 20 مليوناً، ويتركزون في جمهوريات شمال القوقاز وتتارستان وبشكيريا، وهناك نحو مليوني مسلم في موسكو وحدها

من صلاة عيد الفطر 2024 في نوفوسيبيرسك (يتيسوف روستيسلاف/ الأناضول)

مسلمو سيبيريا

وجود تاريخي وتعايش بين الأديان في ظل برد قارس

موسكو ـ **رامي القليوبي**

«المسلمون على حافة العالم» هو اللقب المجازي لمسلمي سيبيريا التي تقع في أقصى شمال الكرة الأرضية، والتي تعتبر المنطقة الأبعد شمالاً التي يعتنق مئات الآلاف من سكانها الأصليين الإسلام، وهو أكثر ديانة انتشاراً في سيبيريا، قارسة البرودة، بعد المسيحية. وفي غياب إحصاءات دقيقة، يقدر إمام المسجد الجامع بمدينة كيميروفو، روبين منيروف، عدد المسلمين في مقاطعته بما لا يقلّ عن 100 ألف شخص، مؤكداً أن المسلمين لا يتوزعون بالتساوي بين الكيانات الإدارية الواقعة في سيبيريا. ويقول منيروف الذي تلقى تعليمه في العاصمة المصرية القاهرة، ويعمل إماماً في كيميروفو منذ 14 عاماً، لـ«العربي الجديد»: «سيبيريا منطقة شاسعة تبلغ مساحتها نحو 10 ملايين كيلومتر مربع، أي أكثر من نصف مساحة روسيا، ويعود أول دليل على وجود المسلمين فيها من خلال الوثائق التاريخية إلى عام 1394. حالياً هناك مقاطعات تقطنها أعداد لا بأس بها من المسلمين، مثل مقاطعة تيومين، في مقابل ندرتهم بمناطق مثل جمهورية تيفا، وتحتضن مقاطعة كيميروفو أكثر من 20 مسجداً عاماً، وبضعة مساجد أخرى تابعة لمشفى أو سجن أو ثكنة عسكرية». ويوضح: «نواجه نقصاً في الأئمة والمعلمين، ورغم الطقس شديد البرودة شتاء، لا تتسع المساجد لجميع الراغبين في أداء الصلاة في عيدي الفطر والأضحى، لذلك تخصص السلطات المحلية مسطحات أو مجمعات رياضية لأداء الصلاة في العيدين، وما زلنا نواجه تحدي توفير الوجبات الحلال في المدارس ورياض الأطفال، لكن بات من الممكن إيجاد مطاعم ومتاجر حلال بسهولة قياساً بما كان عليه الوضع قبل 15 عاماً. يؤدي نحو 50 من مسلمي كيميروفو فريضة الحج سنوياً، ونعتزم تأسيس مدرسة لحفظ القرآن الكريم».

ورغم مرور سنوات طويلة على مغادرته مصر، يعتز منيروف بتجربته التعليمية في القاهرة، وزياراته لعدد من البلدان العربية، ويبدي سعادته حين مصادفة طلاب أو سياح عرب في كيميروفو، ويسعى لتقديم العون إليهم، واصفاً الأمر بالقول: «نشعر كأننا أنصار وهم مهاجرون». من جهته، يشير الخبير في المجلس الروسي للشؤون الدولية، المستشرق كيريل سيميونوف، إلى أنّ «الإسلام بدأ انتشاره في سيبيريا في عهد القبيلة الذهبية أو الخاقانية، وهي إمبراطورية منغولية كانت تحكم من القرن الـ13 إلى القرن الـ15 الميلادية الأراضي التي تضم حالياً كازاخستان وسيبيريا وشرق أوروبا، وقد رسخ هذا تجربة تعايش ناجحة بين الأديان مقارنة بأقاليم روسية أخرى».

ويقول سيميونوف لـ«العربي الجديد»: «امتدّ حكم القبيلة الذهبية إلى منطقة أورال الفاصلة بين قارتي آسيا وأوروبا، وفي فترة حكمها زاد انتشار الإسلام في سيبيريا، لكن المرحلة الرئيسية من انتشار الإسلام كانت في القرنين الـ14 والـ15 الميلاديين، مع توافد المسلمين من آسيا الوسطى، وتأسيسهم لـ(خانية سيبيريا)، وهي دولة إسلامية تحت قيادة الأتراك، وقد انضمت إلى الدولة الموسكوفية بعد أن احتلها قوزاق يرماك، ثم إلى الدولة الروسية لاحقاً». ويُعَدّ أتامان القوزاق يرماك، واسم شهرته «توكماك»، من الشخصيات البارزة في التاريخ الروسي، نظراً لدوره المحوري قائداً حربياً في احتلال غرب سيبيريا بأمر من القيصر إيفان الرابع الملقب بـ«الرهيب» في القرن السادس عشر. ويوضح سيميونوف أن «تتار سيبيريا انتشروا على امتداد ضفاف الأنهار الرئيسية، وهم يختلفون من جهة الأصل عن تتار قازان أو أستراخان، نظراً لاختلاطهم بشعوب آسيا الوسطى كالبخاريين وغيرهم، ولأن الإسلام انتشر في سيبيريا على امتداد أنهار مثل إيشيم وتوبول وإيرتيش، فقد أسسوا دولة إسلامية كبيرة، حتى إن بعض الأسماء الجغرافية مثل تيومين لها أصول إسلامية، إذ يرجع أصلها إلى لفظة (تومين) التترية التي كانت تستخدم للإشارة إلى التجمعات الكبرى من قوات المغول». وحول العلاقة بين المسلمين ومعتنقي الأديان الأخرى في سيبيريا حالياً، يؤكد: «لدي انطباع عام بأن سكان سيبيريا يبدون درجة أعلى من التسامح تجاه المسلمين مقارنة بمناطق روسية أخرى، نظراً لتجربة طويلة الأمد من التعايش السلمي، من دون أن يمنع ذلك وقوع حوادث متفرقة على خلفية ظاهرة الإسلاموفوبيا في المدن الكبرى مثل نوفوسيبيرسك».

وبعد واقعة الهجوم الإرهابي الذي نفذه مهاجرون طاجيك على قاعة العروض «كروكوس سيتي هول» على أطراف موسكو في مارس/آذار الماضي، شهدت روسيا موجة من مظاهر الإسلاموفوبيا شملت بدء تطبيق حظر على ارتداء النقاب في بعض الأقاليم، وتعالي الأصوات المطالبة بفرض قيود على حركة الهجرة الوافدة.

باختصار

يعود أول دليل على وجود المسلمين في سيبيريا من خلال الوثائق التاريخية إلى عام 1394

■■■

تزايد انتشار الإسلام في القرنين الـ14 والـ15 الميلاديين، مع توافد المسلمين من آسيا الوسطى، وتأسيسهم (خانية سيبيريا)

■■■

يبدي سكان سيبيريا درجة أعلى من التسامح تجاه المسلمين مقارنة بمناطق روسية أخرى، نظراً لتجربة طويلة الأمد من التعايش السلمي

وأخيراً

حملة المقاطعة مستمرّة

سعدية مفرح

لا أظنّ أنّ حملة مقاطعة للشركات الداعمة للكيان الصهيوني سبق أن نجحت كما نجحت أخيراً. كلّ يوم تقريباً نقرأ خبراً أو أخباراً جديدةً تتعلّق بتلك الشركات، وتصبّ في النهاية في صالح المقاطعة ونتائجها الإيجابية. صحيح أنّ أفراداً كثيرين شعروا بالملل من طول الحملة واستمرارها، أو باللاجدوى منها أساساً، وهم يرون استمرار العدوان على غزّة واشتداد التقتيل والتدمير، بل وامتداده الى جغرافيات جديدة، لبنان وسورية مثلاً، لكنّ هذا كلّه لم يُؤثّر في نجاح الحملة.

يُقاس النجاح بالنتائج المتوقّعة والمرجوة من المقاطعة، وعلى هذا الصعيد لم يكن ليتوقّع أحدٌ أنّ المقاطعة أداةٌ فاعلةٌ لإيقاف العدوان مباشرةً، بل الغرض منها (في أقلّ إيجابياتها) إشاعة الوعي بالقضية الفلسطينية واستحقاقاتها بالنسبة لجميع البشر، وإعادتها لواجهة اليوميات البسيطة للمتضامنين معها، وهذا ما حدث فعلاً.

أتابع مثلاً تعليقات مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي على كل إعلان يصوره أحد مشاهير هذه الوسائل لصالح منتج من الشركات الداعمة للكيان، وأرى مدى الوعي والصرامة والحزم في هذه التعليقات، وهو ما يُساهم بفشل تلك الإعلانات ويجعلها تأتي غالباً بنتائجَ عكسية. وهذا يعني أنّ حملة مقاطعة منتجات الشركات الداعمة للكيان الصهيوني، التي انطلقت بعد «طوفان الأقصى»، وبالتحديد بعد العدوان الصهيوني السافر على غزّة، حملةٌ تاريخيةٌ بامتياز، وما ميّزها فعلاً أنّها كانت حملةً عفويةً، ولم يكن مخطّطاً لها بدقّة، لكنّها عبّرت عن شعور المتضامنين مع القضية الفلسطينية في كلّ أنحاء العالم بالعجز تجاه ما يحدث، ولم يكن أمامهم سوى اللجوء إلى سلاح المقاطعة، الذي أظنّ أنّه بدأ حركةً رمزيةً سرعان ما تحوّلت فعلاً حقيقياً.

وهذه الحملة المستمرّة حتّى بعد مرور عام على الطوفان لها دلالات عميقة في الوعي العربي، فهي واحدة من الأطول والأكثر تأثيراً، فعكست تضامن الشعوب العربية مع القضية الفلسطينية، وأظهرت رفضها للاحتلال وللإجراءات الإسرائيلية. كما أنّها أدّت إلى زيادة الوعي بحقوق الفلسطينيين وبضرورة دعمهم، ما جعل كثيرين يعيدون تقييم خياراتهم الشرائية والسلوكيات اليومية.

ولا يستطيع أحدٌ أن يتجاهل أنّ حملة المقاطعة تمكّنت من إيجاد حالةٍ من الضغط على الشركات التي كانت تدعم الاحتلال، ما دفع بعضها إلى اتخاذ خطواتٍ للتراجع عن تعاملاتها مع الكيان الصهيوني، أو على الأقلّ تقليل حجم تلك التعاملات أو إخفائها قدر المستطاع. وساهمت وسائل التواصل في تعزيز الحملة من خلال نشر المعلومات والقصص الحقيقية عن معاناة الفلسطينيين، ما أدّى إلى إيجاد شعور جماعي بالمسؤولية والانتماء، وساعد في توسيع دائرة التضامن مع القضية الفلسطينية. علاوة على ذلك، كانت هناك مبادرات شعبية عديدة، مثل تنظيم فعاليات ومظاهرات لدعم المقاطعة، وهذا شارك في نشر الوعي بشكل أكبر وزيادة المشاركة. وأظهرت الحملة كيف يمكن للفرد أن يكون له تأثير ملموس من خلال خياراته اليومية.

> لا تهدف المقاطعة للبحث عن الأفضل والأرخص، بقدر ما تهدف إلى البحث عن دور فاعل لنا في معركة لا نملكُ فيها إلّا القليل من الأسلحة

صحيح أن الحملة بدأت عفوية، إلّا أنّها لم تكن مُجرَّد ردَّة فعل عابرة، بل يمكن اعتبارها بدايةً لوعي جماعي أعمق، إذ أصبح الناس أكثر إدراكاً لتأثير خياراتهم الاقتصادية على مسارات القضية وأهمّية دعم العدالة والحقوق الإنسانية. وهذه الحملة قد تفتح آفاقاً جديدةً لمزيد من النشاطات الشعبية، وهو ما يُعزّز قدرة المجتمعات العربية على التصدّي للاحتلال والدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني بما تملكه من خيارات متاحة. المهم الاستمرار والدأب.

وعلى هذا الصعيد، علينا أنّ نعرف أنّ كثيرين بدأوا بالمقاطعة وانتهى الأمر بهم إلى الاستغناء الحقيقي عن منتجات الشركات الداعمة للكيان، بعدما اكتشفوا أن هناك بدائلَ وطنيةً كثيرةً أفضل وأرخص لم يكونوا ليعرفوها تحت هالة الدعايات للمنتجات الشهيرة. لكن علينا التأكيد دائماً أنّ المقاطعة لا تهدف للبحث عن الأفضل والأرخص، بقدر ما تهدف إلى البحث عن دورٍ فاعلٍ لنا في معركة لا نملك إلّا القليل من الأسلحة المتاحة للدخول فيها.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**